مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بجامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد :06/ العـدد:02 / ديسمبر (2022)، ص.98/91

الاستبدال اللّغوي بالاستعارة بين البلاغة العربية والدراسات المعاصرة

Language replacement by metaphor between Arabic rhetoric and contemporary studies

أحمد راجع
ahm.radja@univ-adrar.edu.dz
جامعة أحمد دراية أدرار.
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/01/05 تاريخ القبول: 2022/08/09 تاريخ النشر: 2022/12/02

ملخص:
يهدف البحث إلى التعريف بالاستعارة اللغوية القائمة على التشبيه وكيفية أدائها ،تلك الظاهرة اللغوية التي تعطي الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ،وتجعل الجماد حيّا ناطقا ،وانتهى إلى أن عبد القاهر الجُرجَانيّ (ت471هـ) أرجع الحسن في الكلام العربي البديع إلى نظم كلماته وتناسقها وتآلفها، ذلك النظم القائم على الإحساس والذوق،وحسن التأليف وانسجام في التركيب.
ويستنتج البحث وظائفأسلوبية وتأثيرية وخطابية للاستعارة اللغوية لتحقيق ذلك التفاعل بين مكونات اللغة داخل السياق،وإعطاء التعبير الاستعاري القائم على الاستبدال اللفظي رفعة أسلوبية في الكلام.
كلمات مفتاحية:الاستعارة ؛المعاني؛ نظم الكلمات ؛وظائفأسلوبية؛ الاستبدال اللفظي.

Abstract:
A metaphor is a figure of a speech that describes an object or action in a way that isn't literally true, but helps explain an idea or make a comparison Abdelkahir al Jorjani)(471,in his book refers to the systems consistency of his words, systems based on feeling and taste this is due to the good writing and harmony in the words' composition ,The metaphor has stylistic influential and discursive functions that achieve interaction and its expression based mainly on verbal substitution which gives a stylistic elevation in speech.
Keywords: The metaphor; which word; verbal substitution; stylisticfunctions;the meaning.

تقديم:
تقوم هذه الدراسة على التعرف على تحليل ظاهرة لغوية بلاغية هي الاستعارة بوصفها عملية استبدال للألفاظ في الجملة العربية وقفز على العرف اللفظي،وتجيب الدراسة عن سؤال الإشكالية الآتي:ماذا اكتسب المتكلم بعد استبدال اللفظ بالاستعارة؟وما فائدة التعبير الاستعاري الجديد؟
ويُفترض أن تتحقق مجموعة من الأهداف تتلخص في إبراز شروط الاستعارة المصيبة في لغة العرب،وتوضيح الصورة التفاعلية لهذا الاستبدال اللغوي داخل السياقات المختلفة،وأما منهج هذه الدراسة فهو الوصفي التحليلي.

أولا-الاستبدال اللغوي:
الاستبدال «أحد المناهج الأساسية أو المعايير الجوهرية التي تستعين بها اللسانيات الحديثة في دراسة اللغة ،وهو يقوم على أساس العناصر اللغوية بعضها ببعض سواء أكانت هذه العناصر أحرفا أم كلمات ،أفعالا أو أسماء أم جملا ،ولذلك تتعدد أشكال الاستبدال اللغوي ما بين صوتي ونحوي ودلالي.»[1]

فالاستبدال الصوتي وسيلة أو منهج للتمييز بين "الفونيمات" المختلفة،وهو «وسيلة من وسائل الكشف عن الوحدات الصوتية التي تعين على التفريق بين المعاني، كالفروق بين صوتي"ساح"و"صاح" ،وبين "مال" و"نال" وهو ظاهرة تحدث في اللغة العربية فيما يسمّى "الإعلال والإبدال" ، حيث يتم استبدال الأصوات بعضها ببعض في بعض الكلمات ، كاستبدال "الياء بالواو" إحداهما بالأخرى ، فالياء تستبدل بالواو إذا وقعت الواو الساكنة بعد كسر مثل: "مِيزان" فأصلها "مِوْزان" و"مِيعاد" إذ أصلها "مِوْعاد"، وأما الاستبدال النحوي فيكون على مستوى التركيب اللغوي ، فيه يتم استبدال كلمة بكلمة واحدة تقدمت عليها في التركيب أو بكلمتين أو أكثر ، أو استبدال كلمة بجملة ،طلبا للاختصار ومنعا للتكرار ،ومن أشهر أنواع الاستبدال النحوي استبدال الضمائر(متصلة كانت أم منفصلة) بالأسماء (مفردة أو مثنّاة أو مجموعة)،ويكثر الاستبدال النحوي في التركيب اللغوي التي يتمثل في إجابات عن أسئلة ، ففي قولنا : نعم قابلتهم ، إجابة عن سؤال : هل قابلت زيدا وعمرا وعليا ؟.وأما الاستبدال الدلالي فهو وسيلة أو منهج للوقوف على دلالة الكلمة في السياق الذي ترد فيه ، من خلال استبدال كلمة بأخرى في السياق نفسه ، فإذا لم يتغير المعنى ، وكانت الجملتان متساويتين دلاليا دل ذلك على أن الكلمة البديلة تدل على ما تدل عليه الكلمة المستبدلة، وإذا تغيّر المعنى وكانت الجملتان مختلفتين دلاليا دل ذلك على أن الكلمة البديلة ليست بمعنى الكلمة المستبدلة.»[2]

والاستعارة استبدال لغوي يظهر في جميع هذه الأنواع ،ولكنّه يركز على الدلالة لاهتمامه بالمعنى المجازي المستحدث في التعبير.

ثانيا-استعارة اللفظ في اللغة العربية:

استعمل العرب الكلمات في لغتهم حقيقة ومجازا ،ويعرّف عَبدُ القَاهِرِ الجُرْجَانِيّ(ت471هـ) المجاز بقوله: «المجاز استعمال اللفظ لغير ما وُضِعَ له لوجود علاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي مع قرينة تمنع إيراد ذلك المعنى الأصلي»[3] ، وقسم المجاز قسمين: لغوي وعقلي، ونقصر حديثنا هنا في المجاز اللغوي ،لأن الاستعارة قسم منه يقوم على الاستبدال .

تعرّض عبد القاهر لعلاقة المجاز المرسل بالاستعارة، فميَّزَ بينهما وضمّ الاستعارة إلى المجاز اللغوي وهي تقوم على التشبيه، بينما يرى أن «المجاز المرسل ممَّا ليس من التشبيه في شيء ،ولكنّه نقل اللفظ عن الشيء إلى الشيء بسببِ اختصاصٍ وضرب من الملابسة بينهما وخلط أحدهما بالآخر»[4] ،وعلّلَ هذا الخلط بينهما بوصفهما مجازا في المفرد ؛أي أنّ اللفظ يستعمل في غير مَا وضع له أصلاً، وردّ ذلك إلى أصل اللغة، ففي نظره أن الذين خلَطوا بين هذين النوعين «رجعوا في ذلك إلى ما يتعارفُه الناس في معنى العارية، وأنّها شيءٌ حُوّل عن مالِكِهِ ونُقِلَ عن مقرّهِ الذي هو أصل في استحقاقه إلى ما ليس بأصل، فأطلقوا على كل لفظ مستعمل في غير معناه الأصلي استعارة ،ولم يُراعوا عرف القوم في هذه الأمور وما اصطلحوا عليه من قصر الاستعارة على ما كان نقلُه نقل التشبيه للمبالغة»[5] ،وبيَّن عبد القاهر ذلك بهذا المثال في قول الشاعر " واستَبَّ بَعْدَكَ يا كليبُ المجلسُ "،ودحض ما ذهب إليه الآمِدِيُّ (ت370هـ) حين عدّ لفظ "المجلس" استعارة، فالمجلس كما يقول: « القوم الذين يجتمعون في الأمور "وليس المجلس بهذا المعنى استعارة لأنه لم يقع مِن طريق التشبيه بل على حدّ وقوع الشيء على ما يتّصل به وتكثر ملابستُه إيَّاهُ، وأي شبه يكون بين القوم ومكانهم الذين يجتمعون فيه»[6] .

فعبد القاهر لا يرى صلة مشابهة في هذا المثَل، ولذا يَرفُضُ اعتبارَ هذا اللون من المجاز استعارة، وإنما هو مجاز مرسل لأن العلاقة هنا مكانية وليست علاقة تشبيه، وبيّن أن الاستعارة تتحدد فيها الصفات المشتركة بين المستعار والمستعار له فيقول: « ألا ترى أن الاسم المستعار يتناول المستعار له ليدُلَّ على مشاركته المستعار منه في صفة أخصّ، أو هي أخص الصفات التي من أجلها وُضع الاسم الأول، أعني أن الشجاعة أقوى المعاني التي من أجلها وضع الاسم، إن الشجاعة أقوى المعاني التي من أجلها سمّيَ الأسد أسداً، وأنت تستعير الاسم للشيء على معنى إثباتها له على حدّها في الأسد »[7] .

إذن ؛ففي المثال صفات تربط الأصل (الرّجل) بالفرع (الأسد) هي الشجاعة والقوة، وهي التي سَوَّغَتْ عملية الاستعارة، ثم إنّ عبدَ القَاهِرِ يواصل حديثه مبيّنا الفرق بين الاستعارة والمجاز المرسل بقوله: «فقولهم "إن له يداً

"،يعني أن العلاقة بين اليد والنعمة علاقة سببية وليست علاقة تشبيه، فالتشبيه لا يوجد هنا، لأنك لا تثبت للنعمة – بإجراء اسم اليد عليها – شيئا من صفاتِ الجارحة المعلومة، ولا تروم تشبيها بها البتّة لا مبالغاً ولا غير مبالغ»[8].

ثالثا-خدمة المعنى غاية التجنيس الحسن والاستعارةالبديعة:

يرى عبد القاهر أن "البديع "[9] وبخاصة التجنيس لا يخرج عن دائرة النظم فيقول : « أمَّا التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلّا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً،ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمًى بعيداً،أتراكَ استضعفتَ تجنيس أبي تمّام في قوله[10] :

ذَهَبَتْ بِمَذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ فَالْتَوَتْ فِيهِ الظُّنونُ: أَمَذْهَبٌ أم مُذْهَبُ

واستحسنت تجنيس القائل "حتّى نجا من خوفه وما نَجَا "، وقول الفَتْحِ البُسْتيّ:

نَاظَرَاهُ فيأَ جَنَى ناظِرَاهُ أَوْدَعَانِي أَمُتْ بما أَوْدَعَنِي[11]

لأمر يرجع إلى اللفظ، أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني، ورأيتك لم يزدك بمَذهبٍ و مذهبُ على أن أسمعك حروفاً مكررة تروم لها فائدة فلا تجدها إلّا مجهولة منكرةً، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدْكَ وقد أحسن الزيادة ووفّاها، فهذه السريرة صار التجنيس- وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة، من حلى الشعر، ومذكوراً في أقسام البديع»[12] ، ثم يعلل عبدُ القَاهِرِ ذلك بأن مردَّ الحسْنِ فيه إلى المعنى لا إلى اللفظ بقوله: «وقد تبيّن لك أن ما يُعطِي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتمَّ بنصرة المعنى ؛إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وُجد فيه إلّا معيب مستهجن، ولذلك ذُم الاستكثار منه والولوع به،وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعاني والمصرّفة في حُكمِها... فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته, وذلك مظنة من الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للين. »[13]

ويؤكد عبدُ القاهرِ على أن كلام المتقدمين كان أمكن في العقول لبعدهم عن التعمّد والتصنع الذي هو ضرب من الخداع والتزويق، ولزومهم سجية الطبع[14] ، ثم يواصل الحديث عن زلة المعاصرين في فهمهم للبديع بقوله: «وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبُه فرط شغَفِهِ بأمور تَرْجع إلى ما لَهُ اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليُفهِمَ، ويقول ليبيّنَ،ويخيّل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يَقَعَ ما عَناهُ في عمياءَ »[15]

وهكذا فإننا نرى عبدَ القاهرِ يُرْجع الحسن في الكلام البديع إلى نظم كلماته وتناسقها وتآلفها، وأن استضعاف أو استحسان البديع لا يرجع إلى اللفظ نفسه وإنما يرجع إلى الفائدة التي حققها أو المعنى الذي أدّاه، فرأي عبد القاهر في البديع هو موقفه من الحسن في الكلام العربي عامة، فقد أثبت أن الألفاظ لا توصف بحسن وإنما بالمعنى الذي تؤديه، فهو الذي يُضفي ذلك الحسن على الكلام، وهذا هو الموقف الذي ظل الجرجاني متمسكاً به أثناء دراسته للاستعارة.

رابعا-الوظيفة المجازية للاستعارة:

لما كانت الاستعارة تقوم على التشبيه بنوع من المبالغة فقد حلّلها عبد القاهرِ الجرجانيّ بفهم خاص وطريقة فريدة في المعالجة تعبّر عن عمق فكري قائم على الإحساس والذوق، ليخلُصَ إلى أنها صنف بلاغي أرقى من التشبيه فنيًا، لأنه في التشبيه طرفان يجتمعان معاً ،وأمَّا في الاستعارة فنجد طرفاً واحداً ،ففي التشبيه يجتمع الطرفان معاً ،وأمَّا في الاستعارة يحُلّ طرف واحد محلَّ الآخر، ولكن حقيقة الوضع اللغوي هي التي تحدّد معنى كل من الطرفين، فالاستعارة عند عبد القاهر تؤدّي وظيفتها لأنها:

أ – تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدّة تزيده قدرة و نُبلاً، وتوجب له بعض الفضل فضلا، فإنك تجد اللفظة الواحدة لها في كل موضع شأن وشرف منفرد[16] ،كما أن هناك أمراً مهما نبّه عليه عبد القاهر وهو أن الصور البيانية لا تتجلّى للوضوح في الكلام العربي إلّا إذا تآلفت الكلمات داخل السيّاق اللغوي الذي تمتنُ فيه العلاقات بين الأجزاء، أو ما يسمّى بالنظم.

ب – أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، وأنك تخرج من الصَّدَفة الواحدة عدّة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر[17] ، كما أنها تمتاز بالإيجاز مع اقترانها بالمبالغة في الكلام بقصد تأكيد المعنى وجَعله مقنعاً للمتلقّي، فالتشبيه الذي أخفي فيها هو موطن الجمال فيها ،لا يكتشف إلا بعد حضور الذوق وإعمال العقل بصورة من

المبالغة ،فقولك "رأيت أسداً "يفيد ما لا يفيد قولك " رأيت رجلاً كالأسد "، إذ الثاني يُفيد شجاعة دون شجاعة الأسد ،أمّا الآخر فهو يفيد شجاعة الأسد نفسه.[18]

جـ - من وظائفها كذلك في رأي عبدِ القاهرِ أنها تقوم بالتجسيم لإيصال المعنى بأكمله واضحاً للمتلقّي وفي ذلك يقول: «فإنك ترى بها الجماد حيّاً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرّسَ مبيَّنةً، والمعاني الخفية بادية جلية».[19]

ولهذا التجسيم غاية هي غاية الاستعارة نفسِها، فهيَ لا تقتصر على تقديم المعنى والإقناع به اعتماداً على الوضوح الجلي بالبصر أو الحسّ فحسب، بل تضفي الحياة والحركة على الجمادات ،وتجعلها تتحرك في الذهن حركات تنبعث منها إشعاعات إيحائية لا يمكن أن يصل إليها التعبير المجرّد أحياناً، لأن العبارة الحسّية أغنى بقوة رمزها، وما قد يرقُد تحتها من احتمالات، أو ما تستدعي من إحساسات وخواطر مرتبطة بالشعور العام كلّه.[20]

كـ - من وظائف الاستعارة أنها تضع وقعاً جميلا في نفس المتلقّي وتؤثر فيها، وتحدث في النفس أثراً يؤدي إلى إمتاع الإحساس، وتثقيف الذوق وتربيته، وجلب الأنس للمتلقّي.[21]

وقولهم«فإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسِّمَت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطّفت لك الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لتنالها الظنون»[22] ،فالاستعارة بذلك تدخل الأريحية على النفس وتروق وتؤنس،وبذلك تصبح قد أدّت وظيفتها عند ذوي الأذهان الصافية والعقول النافذة والطباع السليمة والنفوس المستعدَّة لأن تعي الحكمة.

1-موقع الحسن في عبارة الاستعارة:

يرجع الجمال في النظم في رأي عبد القاهر الجرجاني إلى ما في الكلمات من حسن التأليف وانسجام في التركيب، فيسوق مثالا هو قول الشاعر:

أَخَذْنَا بأَطْرافِ الأَحَاديثِ بيْنَنَا وسَالَتْ بأَعنَاقِ المَطِيّ الأباطِحُ[23].

ويقول فيه : «تصريح أولاً بما أومأ إليه في الأَخذ بأطراف الأَحاديث، من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرَّواحل، وفي حالة التوجه إلى المنازل، وأخبَرَ بعدُ بسرعة السّير ووطاءة الظهر، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح، وكان في ذلك ما يؤكد ما قبله، لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السّيرَ السهلَ السَّريع، زاد ذلك في نشاط الرّكبان، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً، ثم قال" بأعناق المطي"ولم يقل بالمطي، لأن السرعة والبطء يظهران غالباً في أعناقها، ويعبّر عن النشاط والمرح إذا كان في أنفسها بأفاعيل لها خاصة في العنق والرأس, فقل الآن: هل بَقيت عليك حسنةٌ تُحيل فيها على لفظة من ألفاظها؟! حتى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة ولو ذكرت على الانفراد، وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه، وتأليفه وترصيفه، وحتى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي – وإن ازدادت حسناً بمصاحبة أخواتها، واكتست رونقا بمصاصة أترابها – فإنها إذا جليت للعين فَردة، وتُركِبُ في الخيط فذة، لم تعدم الفضيلةَ الذاتية، والبهجة التي في ذاتها مطوية، والشَّذرة من الذهب تراها بصحبة الجواهر في القلادة، واكتنافها لها في عنق الغادَةِ، وصَلتها بَريقُ حُمرتِهَا، والتهاب جُوهرها، بأنوار تلك الدرر التي تُجاورها، ولألاء اللآلئ التي تناظرها، تزداد جمالاً في العين، ولطْف موقع من حقيقة الزين، ثم هي إن حُرِمَت صحبة تلك العقائل، وفرق الدّهر الخَتُونَ بينها وبين هاتيك النفائس، لم يَعْرَ من بهجتها الأصلية، ولم تذهب عنها فضيلة الذهبية»[24] ، ثم يواصل عبد القاهر حديثه عن الحسن في الشّعر الذي هو فيما تؤديه الألفاظ من معاني، ويعيب على من تخيل الحسن في مجرد اللفظ بقوله : «ليس هذا بقياس الشِعر الموصوف بحسن اللفظ، وإن كان لا يبْعُدُ أن يتخيّله من لا ينعِمُ النظر، ولا يسم التدبُّر، بل حق هذا المثل أن يُوضَعَ في نصره بعض المعاني الحكمية والتشبيهية بعضا، وازديادِ الحسن منها بأن يجامع شكل منها شكلاً ،وأن يصلَ الذِّكر بين متدانيات في ولادة العقول إيّاها،ومتجاورات في تنزيل الإفهام لها»[25] .

نخلص ممّا سبق إلى أنّ عبدَ القاهرِ درس قضية اللفظ والمعنى انطلاقاً ممّا كان ينتصر له في عصره وهو اللفظ بمنأى عن المعنى، فبعد أن عرضَ أمثلة من الشعر بالنظر العقلي والتحليل، خلص إلى أن اللفظة لا تبلغ من الحسن ما تبلغه إلّا داخل التركيب واصفاً الألفاظ بالجواهر والدرر في العقد الواحد، فحسنها يراه يتجلىَّ في ذلك التآلف والتضام في عنق الغادة، وهذا الحسن الذي يقصد إليه عبد القاهر قد قرره عبدُ الرّحمنِ بنِ خَلْدُون (ت808هـ) بعده حين تحدث من ملكة البلاغة بقوله: «فملكة البلاغة في اللسان تهدي البَليغَ إلى وجود النظم وحسن التركيب المرافق لتراكيب العرب في

لغتهم ونظم كلامهم. »[26]، كما أن هناك من المحدَثين من يقرر الحقيقة نفسها عندما يعرف الأسلوب بقوله: «الأسلوب ينصبُّ بداهة على هذا العنصر اللفظي ،فهو الصورة اللفظية التي يُعبَّر بها عن المعاني ،أو هو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال،وهو المنوال الذي تنسج فيه التراكيب والقالب الذي تفرغ فيه، أو هو العبارات اللفظية المنسَّقة لأداء المعاني ».[27]

2-خصائص الاستعارة المصيبة في الجملة العربية:

استنتج علماء العربية خصائص الاستعارة حال دخولها في الكلام، ويمكن اختصارها بالقول بأنها :

تعطي الكثير من المعاني باليسير من اللفظ،وتجعل الجماد حيا ناطقا،كقول أبي نوَاس(ت198هـ):

فاسْتَنْطَقَ العُودُ قَدْ طَالَ سُكُوتُ بِهِ لَنْ يَنْطِقَ اللَّهْوُ حَتّى يَنْطِقَ العُودُ[28]

و"تجعل الأعجم فصيحا، كما تجعل الأجسام الخرس مبينة كقولك : "أخبرتني أسارير وجهه بما في نفسه" ،وتجعل الجماد حيا ناطقا،ثم تجعل المعاني الخفية بادية جلية [29]،كما في المثل العربي:"جدَعَ الحلال أنْفَ الغيرةِ"[30]،وتجعل المعاني العقلية كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون كما في قوله تعالى ﴿لتُخْرِجَ النّاسَ منَ الظّلُمَاتِ إلَى النُّورِ﴾ سورة إبراهيم،الآية 1 ،وانّها تجعل الأوصاف المادية أوصافا روحانية كقول الشاعر:

وَقَدْ خَفِيَتْ مِنْ لُطْفِهَا فَكَأَنَّهَا بَقَايَا يَقِينٍ كَادَ يُذْهِبُهُ الشَّكُّ[31]

وهذه هي سنة العرب في الكلام باستعارة اللفظ واستبداله،ليحصل المعنى المراد،ثم لإثارة ذهن السامع في حالة جديدة من التعبير البديع،وقد تتابعت دراسات النقاد تشرح هذا الاستبدال اللغوي وتبين بلاغته في القرءان الكريم وفي كلام العرب عامة.

خامسا-وظيفة الاستعارة في نظر النقد الحديث:

يرى اللّسانيون أن الاستعارة صورة بلاغية للتكافؤ ، لأنها «تقدم كيانا مختلفا له حالة مكافئة لحالة الكيان الذي يشكل الموضوع الرئيس للصورة ، فمثلا في جملة الاستعارة "تخنفست السيارة"تُعرض حركة الخنفساء على أنها مكافئة لحركة السيارة ، فهي مبنية على تشابه مفترض أو قياس بين الموضوع الحرفي (حركة السيارة) وبديله الاستعاري (حركة الخنفساء)وهكذا تكون الاستعارة ترابطية في ميزتها، وتستثمر العلاقات العمومية للغة ،وللاستعارة وظيفة من الوظيفة الشعرية للغة لاعتمادها على كل من الصيغتين الانتقائية والتجميعية ، ففي المثال السابق نجد كلمة "تخنفس"منتقاة من خزان الاحتمالات الذي يشمل السيارة وفق المبدأ الذي يجعل حركة السيارة وحركة الحشرة متكافئتين ،وللاستعارة وظائف عديدة أهمها الوظيفة الأسلوبية ، فهي قناة اتصال ، إذ أنّ المعاني أشياء تدركها الحواس ،وكذلك التعبيرات اللغوية هي أشياء يمكن إدراكها بالحواس، وتحتوي التعبيرات اللغوية على معان وفي أثناء عملية الاتصال يقوم المتكلم بإرسال معنى محدد إلى السامع ، عن طريق تعبير لغوي يوصل ذلك المعنى ومن خلال أطراف التواصل الآتية :الباث (المرسل) ، المتقبل ، الرسالة ، السياق ،المصطلح أو القانون ، الصلة،والوظيفة التأثيرية العاطفية (الانفعالية) للاستعارة تتعلق بالمتكلم من تعجب واستفهام ،ويعد الباحثون الوظيفة الانفعالية التعبيرية أولى وظائف الصورة إذ أنها تساعد في توضيح شخصية الكاتب و تعبر عن فلسفة الكاتب وتطلعاته، فعند كل شاعر كبير نظام من الصور يستمد معناه من صميم كيان الفنان ،و يبرز الشاعر من خلال كلماته وأوزانه المفضلة ،والوظيفة الخطابية (الإيحائية) ، فما يتصل بالمخاطب من أمر ونهي وغيره يوفر الإيحاء بشيء ما لشخص ما بطريقة غير مباشرة ، فالصورة وسيلة إيحاء تلميحية غير مباشرة،والوظيفة الفنية أو الإنشائية أو الشاعرية والمقصود منها هو الكلام ذاته ، وهي التي تسقط مبدأ التعادل من محور الانتقاء على محور التركيب أي أنها اختيار واع أولا ، ويتم بطريقة متزامنة على المستوى الاستبدالي العمودي ، والمستوى النظمي الأفقي ، ولاسيما في الإنتاج الأدبي،والصورة تكون أحيانا تجسيدا للفكرة ،إذ ترمي إلى التعبير عما يتعذر التعبير عنه ، وحتى إلى الكشف عما تعذر معرفته ، فهي وسيلة من الوسائل المعتمدة التي قد تكون كلاما تضمينيا ، فيحس بها القارئ عند تعامله مع تلك الكلمات ، وتصبح الصورة أفضل وسيلة لتبادل هذا الانفعال،أما الوظيفية المرجعية فهي ما يتصل بالسياق في النص عامة ،وأما الوظيفة الاتصالية أو التأكيدية فالقصد منها التأكد من أحكام ربط الصلة بين طرفي عملية الإبلاغ، وأما الوظيفة اللغوية ،فهي ما يتعلق باكتساب اللغة وقوانينها».[32]

فتتحقق وظائف كثيرة باستعارة اللفظ واستبداله؛ كالوظيفة الأسلوبيةوالوظيفة التأثيرية العاطفية،والوظيفة الخطابية (الإيحائية)،والوظيفة الفنية أو الإنشائية أو الشاعرية،والوظيفية المرجعية،والوظيفة الاتصالية أو التأكيدية،ثمالوظيفة اللغوية،وهذه الوظائف تحصل فائدتها لدى المتكلم والسامع حال عملية التواصل.

سادسا-المعنى الاستعاري يحدده السياق:

ليس من الضروري الاعتماد على التشابه أو المقارنة لتحديد المعنى الاستعاري بل يجب« أن ننظر إلى الاستعارة بلغة التفاعل بين السياقات المختلفة لأن هذا أكثر عمومية وأكثر جدوى و يسمح بأنواع عديدة من العلاقات ، وإذا كان التشبيه مقارنة فإن الاستعارة يجب أن تبنى على هدف أكبر ، وعلى تصور جديد من العلاقة ،وليست الاستعارة ضم كلمات لا تربط بينها روابط ،و السياق يزود بوجه من الوجوه أرضية الاستعارة (وجه الشبه) ببعض الإشارات والمفاهيم ،وما يزيد في الكلام هو مهارة الكاتب في استخدام الكلمة في موضعها الصحيح ،وما يحققه ذلك الارتباط والتواؤم بين الكلمات بعضها البعض ،وما تضيفه تلك الوظائف اللغوية المختلفة للكلام ، ومظاهر الجمال كالانسجام والإيقاع والتأثير تكون صفات لجودة التعبير نتيجة لقدرة الكاتب على استخدام اللغة واستغلال إمكاناتها ، وسعيه إلى تحقيق التفاعل بين مكونات اللغة داخل السياق، وإن لكل سياق وضعه الخاص ، ومن ثم يختلف معنى الكلمة الواحدة باختلاف السياق الذي ترد فيه، وقد أكد عبد القاهر الجرجاني على مكانة اللفظة الفصيحة بمكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معاني جارتها في مظهر الإبداع ،و البحث عن سياق ينتج في حالات إيجابية لغوية جديدة، فلا مجال للتفسير إلا من خلال السياق ،فقد رأى أنصار النظرية السياقية في النقد الغربي أن الكلمة في الاستعارة لا يمكن أن تفهم إلا من خلال السياق وعلاقتها مع الكلمات الأخرى ، وأن للسياق أهمية كبيرة في تجديد المعنى وتوجيهه ،ومعظم الكلمات من حيث المفهوم المعجمي دالة على أكثر من معنى واحد، فالذي يحدد هذه المعاني ويفصلها هو السياق في مورد النص ،غير أنه لا يمكن فصل الشكل (form) عن المضمون ،فمن أراد أن يقرأ الشعر لابد أن يعي حقيقة أن الشاعر يوسع معنى المصطلحات ويزيد في تفاعلها ، لأن الاستعارة تعنى وجود فكرتين لشيئين مختلفين يعملان معا،هما (المشبه والمشبه به) ،وهما مرتكزان على فكرة أو عبارة مشتركة بينهما، وينتج المعنى نتيجة التفاعل بين هذين الحدين أو الشيئين ،فيتحقق مفهوم النظريتين التفاعلية و النظرية السياقية معا، في علاقة بين اللغة والفكر والأشياء ،وبين الاستعارة اللغوية والاستعارة العقلية ،فالاستعارة بذلك ليست فقط انحرافا لفظيا لكلمات معينة إنما هي تفاعل بين السياقات المختلفة باعتبار أن السياق يعني مجموعة من الأحداث تعمل معا في آن واحد. »(33)

ولنظرية السياق في النقد الأدبي العربي والحديث مجهود بارز في وضع قواعد وشروط تحسّن عملية التواصل اللغوي،وتبلغ المعنى المراد من اللفظ بدقة.

سابعا-النظرية الاستبدالية للاستعارة:

يرى أصحاب النظرية الاستبدالية «أن الأمثلة الاستعارية التي تواجههم في النص تعتمد على الإبدال والمقارنة ، وهي تحصل باستبدال لفظة استعارية بلفظة حقيقية ،والغرض من إبدال كلمة بأخرى استعارية هو غرض أسلوبي ،فالتعبير الاستعاري يمكن أن يشير إلى شيء مجسم لا يوجد تماما في التعبير الحرفي ، ومن المفروض أن يعطي هذا سرورا للقارئ ، فتتحول أفكاره عن معنى كلمة "علي" إلى هذا "الأسد" غير المقصود ، ثم يستمتع بحل هذه المشكلة ،ويلاحظ براعة الكاتب في إخفاء جزء من معناه، ويتقبل جملة (علي أسد)،فالاستعارة بذلك تزيين ووشي لاحق باللغة ، وأثرها ينبع من تمازج المألوف مع غير المألوف ، ومن هذا التمازج يتحقق عنصرا التجلية والإدهاش ، فالتجلية تُستقى من الأداء اللغوي ، والإدهاش ينبثق من تقديم لذة ذهنية تحصل من إدراك تلك المشابهة الناجمة بواسطة البناء الاستعاري ،وبذلك فإن الاستعارة لا تتعلق بكلمة معجمية واحدة ،وهي ضرب من "المهارة" في صوغ الصورة ،وهي أحد مصادر الرفعة الأسلوبية ،وهناك فرق بين الكلام العادي والاستعارة التي هي أجمل أنواع المجاز الكلامي ، وفائدتها نابعة من صفات الحيوية ، والوضوح والاختصار ،والتعظيم ، والتكبير التزيين ،والتصغير وتجنب القول النابي،ويركز أصحاب النظرية الاستبدالية على التماثل الايجابي والتماثل السلبي في الاستعارة، فمن مثال "السفينة تحرث البحر" يوجد تشابه بين"السفينة تمخر عباب اليم" وبين "المحراث يشق تربة الأرض" أو بين" فعل السفينة في الأمواج" و"فعل المحراث في التربة "، فأي شيء مشابه للآخر ، فهو مشابه له جزئيا إلى حد ما ، ومخالف له كذلك

بشكل جزئي ، ولكي يكون للتشابه أهمية لابد أن يكون هذا التشابه أكثر وضوحا من عنصر الاختلاف والمغايرة الموجودة بين طرفي الاستعارة،ويكون وجوهريا ومهما.»[34]

فالاستعارة بهذا هي استبدال يصيب لبَّ التصوير الأدبي ،وهي ذخيرته اللغوية التي لا تنفذ، تتجاوز الأشياء إلى صورها، وتتجاوز ظاهر الصورة إلى مكنوناتها وما ترمز إليه من بعيد الإيحاء ورائع التعبير، ورهافة المشاعر الحسية التي تدبُّ فيها الحركة والحياة ؛باعتمادها على عناصر التصوير والحيوية ،وعلى الإيجاز وحسن الاختيار والمبالغة المقبولة في التعبير باللغة.

الخاتمة:

ختاما نخلص إلى الآتي:

- الاستعارة استبدال لغوي يظهر في جميع أنواع الاستبدال الصوتي والصرفي والدلالي.

-الاستعارة نقل اللفظ من أصله اللغوي إلى غيره، فتصير بذلك ضرباً من المجاز القائم على التشبيه، وهي تتجاوز الأشياء إلى صورها، وتتجاوز ظاهر الصورة إلى مكنوناتها وما ترمز إليه من بعيد الإيحاء ورائع التعبير، باعتمادها على عناصر التصوير والحيوية وعلى الإيجاز وحسن الاختيار والمبالغة المقبولة.

-الاستعارة تبرز البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدرة ونبلا وفضلاً ، وأنها تعطي الكثير من المعاني باليَسير من اللفظ كما أنها تقوم بتجسيم المعقولات لإيصال المعنى بأكمله واضحاً للمتلقّي ،فتمتعُ بذلك الإحساس وتثقف الذوق وتربيه وتجلب الأنس.

-للاستعارة وظائف تؤديها داخل السياق تحت مسمّى النظم الذي هو تأليف الكلمات وارتباط الجمل وتناسق العبارات، هي وظائف أسلوبية وتأثيرية وخطابية تحقق ذلك التفاعل بين مكونات اللغة داخل السياق .

-يعطي التعبير الاستعاري القائم على الاستبدال اللفظي رفعة أسلوبية في الكلام،ويرى أصحاب النظرية الاستبدالية أن الأمثلة الاستعارية في النص تعتمد على الإبدال والمقارنة ، وهي تحصل باستبدال لفظة استعارية بلفظة حقيقية ،والغرض من إبدال كلمة بأخرى استعارية هو غرض أسلوبي.

-الحسن في اللفظة المستعارة لا يكون حين ذكرها على انفراد، فهي كالجوهرة تزداد حسنا بمصاحبة أخواتها ومضامّة أترابها في القلادة في عنق الغادة، ولذلك كان للنظم ذلك الأثر البالغ في إبراز الصورة الحقيقية للاستعارة عند النقاد العرب القدامى وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني.

وتتزايد التعبيرات اللغوية باستعارة الألفاظ،وكلما تمكن المتكلم من قواعد الاستعارة اللفظية تحكم في اللغة،واللغة العربية لغة الحقيقة والمجاز،وقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب الفصحى،لذا يجب ممارسة الأساليب العربية في التخاطب والكتابة.

الهوامش والإحالات:

[1] - ينظر:ناصر علي عبد النبي ،(2004م)،الاستبدال الدلالي ، دراسة تطبيقية على الفعل أتى في القرآن الكريم : ،قسم اللغة العربية -كلية الآداب بنها - مصر العدد 10،ص:11.

[2] - ينظر:نسفه،ص 12-16

[3] - عبد القاهر الجرجاني ،(1991م)أسرار البلاغة ،تح مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف،دار الجيل ،بيروت،لبنان ،ط1 ، ص 317.

[4] - ينظر:نفسه ،ص: 318.

[5] - ينظر:نفسه ،ص: 356.

[6] - ينظر:نفسه ،ص: 357.

[7] - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 352.

[8] - نفسه، ص: 351.

[9] - يقصد به في النهاية ذلك العلم الذي يهتم بمعرفة وجوه التحسين في كلام العرب الذي ينسب وضعه إلى عبد الله بن المعتز صاحب كتاب " البديع ".

[10] - ديوان أبي تمام،تح إليا الحاوي،(1981م)دار الكتاب البناني،بيروت،لبنان، ص: 55.

[11] -ديوان أبي الفتح البستي،تح درية الخطيب ولطفي الصقال،(1989م)،مجمع اللغة العربية،دمشق،سوريا، ص: 204.

[12] - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ،ص: 5.

[13] - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ،ص: 5.

[14] - ينظر:نفسه، ص: 5.

[15] - نفسه، ص: 6.

[16] - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 33.

[17] - نفسه ،ص: 33.
[18] - ينظر: أحمد علي دهمان،(1986م)،الصورة البلاغة عند عبد القاهر منهجا وتطبيقا، دار طلاس للدراسات والترجمة،دمشق،سوريا، ج2،ص:535.
[19] - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ،ص 33.
[20] - ينظر: أحمد علي دهمان،الصورة البلاغية عند عبد القاهر،ج 2،ص:542.
[21] - ينظر: عبد القاهر الجرجاني ،أسرار البلاغة، ص: 33.
[22] - ينظر: نفسه، ص: 33.
[23] - هذا البيت ينسب إلى الفرزدق، وقد نسبه محقِّقا دلائل الإعجاز إلى " ابن اللثرية " وينظر:عبد القاهر الجرجاني،(1983م) ،دلائل الإعجاز ،تحقيق رضوان وفائز الداية ،دار قتيبة،دمشق،سوريا،ص: 57.
[24] - عبد القاهر الجرجاني ،أسرار البلاغة، ص :39.
[25] - نفسه، ص :40.
[26] - عبد الرحمن ابن خلدون،(2004م)،المقدمة، تح عبد الله محمَّد الدرويش،ط1 ،دار البلخي،دمشق،سوريا، ج2،ص: 397.
[27] - ينظر: أحمد الشايب ،(1966م)، الأسلوب ،دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،مصر،ص 46.
[28] - ديوان أبي نواس ،تح أحمد عبد المجيد الغزالي،دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان،ص81.
[29] - ينظر: عبد القاهر الجرجاني،أسرار البلاغة، ص:51،50
[30] - ينظر:أحمد بن محمَّد النيسابوري ،(1344ه)،مجمع الأمثال،المعاونية الثقافية للأستانة الرضوية المقدسة،ج1،تركيا،ص171.
[31] - ينظر: رفيق خليل عطوي،(1989م)،صناعة الكتابة،علم البيان والمعاني والبديع، دار العلم للملايين ،بيروت،لبنان،ط1،ص 50.
[32] - ينظر: يوسف أبو العدوس ،(1997م)،الاستعارة في النقد الأدبي الحديث ،الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ،ط1،ص 25-28.
[33] - ينظر: عيد محمَّد شبايك،(2005م)،الاستعارة في الدرس المعاصر،وسمات نظر عربية وغربية، دار حراء،القاهرة، مصر،ص 44-45.
[34] - ينظر: يوسف أبو العدوس ،(1989م)،حوليات كلية الآداب ، مجلس النثر العلمي ، الكويت ، عدد 11،ص 20-21.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو تمام ،(1981م)،ديوان شعر ،تح إليا الحاوي،دار الكتاب البناني،بيروت،لبنان.
2. أبو الفتح البستي،(1989م)،ديوان شعر ،تح درية الخطيب ولطفي الصقال،مجمع اللغة العربية،دمشق،سوريا.
3. أبو نواس ، ديوان شعر ،تح أحمد عبد المجيد الغزالي،دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان.
4. أحمد بن محمَّد النيسابوري ،(1344ه)،مجمع الأمثال،المعاونية الثقافية للأستانة الرضوية المقدسة،ج1.تركيا.
5. أحمد الشايب،(1966م)،الأسلوب ،دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،مصر.
6. أحمد علي دهمان،(1986م)،الصورة البلاغة عند عبد القاهر منهجا وتطبيقا، دار طلاس للدراسات والترجمة،دمشق،سوريا.
7. رفيق خليل عطوي،(1989م)،صناعة الكتابة،علم البيان والمعاني والبديع، دار العلم للملايين ،بيروت،لبنان،ط1.
8. عبد القاهر الجرجاني،(1991م)،أسرار البلاغة، تح محمَّد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف،دار الجيل ،بيروت،لبنان ،ط1.
9. عبد القاهر الجرجاني،(1983م)،دلائل الإعجاز ، تحقيق رضوان وفائز الداية ،دار قتيبة،دمشق،سوريا.
10. عبد الرحمن ابن خلدون،(2004م)، المقدمة،تح عبد الله محمَّد الدرويش،ط1 ،دار البلخي،دمشق،سوريا، ج2.
11. عيد محمَّد شبايك،(2005م)،الاستعارة في الدرس المعاصر،وسمات نظر عربية وغربية، دار حراء،القاهرة،مصر.
12. ناصر علي عبد النبي ،(2004م)،الاستبدال الدلالي ، دراسة تطبيقية على الفعل أتى في القرآن الكريم : ،قسم اللغة العربية -كلية الآداب بنها - مصر العدد 10.
13. يوسف أبو العدوس ،(1997م)،الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن .
14. يوسف أبو العدوس ،(1989م)،حوليات كلية الآداب ، مجلس النثر العلمي ، الكويت ، عدد 11.